(أعمال الطريقة الثمانية)

أكبر فشل للمجتمعات المعاصرة بل للرؤية الحداثية للوجود بشكل عام يظهر في هذه الشكوى التي يعاني منها معظم الناس شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً وأظنّ لو ولجنا إلى مركز الأرض سنجد في قعر لهيبها كائنات تشتكي أيضاً من هذا الأمر، وهو "ما عندي وقت". كيف؟ كيف بعد كل هذه الاختراعات والقدرات التنظيمية الهائلة التي لم يكن يحلم بها أكبر أباطرة الماضي وفلاسفة الديكتاتورية في العصور الغابرة، ومع كل ما تيسّر من وسائل العيش والزراعة والصناعة والتجارة العالمية والآلات والكمبيوترات وكل ذلك، كيف صار الناس بشكل عام في المدن، خصوصاً أثراها وأغناها، أبعد وأبعد عن الفراغ والتفرغ، وداء الانهماك الدائم- ولو في عقر الذهن-لدرجة الشعور بالإرهاق المستمر وقلّة الزمن هو الحالة الشائعة. هذا أمر غريب ويمثّل أكبر وأصعب مشكلة تواجه وعود الحداثة المحصورة في المستوى الطبيعي المادّي والاقتصادي المدني.

بدون الفراغ والبطئ في الحياة ينعدم الذوق والشعور والفكر العميق ولمس حقيقة الوجود والوصول إلى جوهر الذات. والفراغ والبطئ هما أكبر أعداء الحضارة الحداثية. الفراغ عدو مبين لابد من ملئه بأي شئ خارجي ومادّي وشكلي ولو بمجرّد "قتل

الوقت" (نعم، "قتل" ولا شئ أقلّ من القتل !). البطئ عدو عظيم، ولابد من إبادته بالسرعة والسرعة الهائلة جداًّ إلى درجة التي يفقد فيها الشخص حتى الشعور بأنه يتحرّك ذهناً وبدناً ولابد من سرعة تنسيه بل تمحو عقله حتى عن ملاحظة ما يدور في نفسه إلى أن يصل إلى نقطة الاندمار النفسي وحينها ينتفع الاقتصاد من الضرائب المكتسبة من فواتير جلسات المصحّات النفسانية.

"ما عندي وقت" تشير إلى الانشغال المرهق وليس الانشغال بأمر محبوب عادةً، وتشير أيضاً إلى السرعة لأن الشخص "يسابق الزمن" (ونتيجة السباق معلومة مسبقاً، وهي أن الموت سيسبقهما معاً). لكن السؤال الذي يهمّنا هو التالي: ما عندك وقت لماذا ؟

...–...

الذي يهمّنا هنا هو إيجاد وقت للطريقة. الطريقة الإلهية النبوية. وهذه الطريقة تقوم على ثمانية أعمال، وسنركّز هنا على هذه الأعمال من جهة أبعادها الذهنية والبدنية المحاطة بالزمن. بمعنى أنها تحتاج إلى فراغ من الأشغال الأخرى، مثل أشغال كسب المعاش وتدبير المنزل وتحصيل الأمن، وتحتاج أيضاً إلى بطئ لأنها أعمال قائمة على الهدوء والتركيز والمراقبة الواعية لأمور باطنة وظاهرة. يعني، حين نذكر هذه الأعمال فنحن لا نقصد معنى مجرّداً عالياً لها مفارق للزمان والمكان، بل نشير إلى أعمال تشبه في

صورتها أعمال من قبيل الطبخ والدخول إلى الحمام وممارسة الرياضة والذهاب إلى المكتب أو المصنع أو المزرعة. ومن هذه الزاوية سنتكلّم إن شاء الله.

حين نقول لشخص "اسلك في الطريقة" فيقول لنا "ما عندي وقت"، فإن قولنا "الطريقة" محدد بأعمال ثمانية، إذا قمت بواحد منها فما فوق فأنت من أهل الطريقة بهذا القدر، وأكمل السالكين من هذا الوجه هو/ هي مَن يجمع بين الأعمال الثمانية كلّها. وسننظر إلى الزمن كأنّه أسبوع، بمعنى أنه لابد على الأقلّ من القيام بهذه الأعمال الثمانية ولو مرّة واحدة في الأسبوع على الأقلّ، حتى لا نضيّق الأمور ونصعّبها، لكن أكمل الناس مَن يستطيع القيام بالأعمال الثمانية كل يوم، وهو أمر ممكن بإذن الله كما سنرى في هذه المقالة.

ما هي الأعمال الثمانية؟ هي: الخلوة. التأمل. الذكر. الفكر. الكتابة. القراءة. الدعاء. المجالس.

...–...

١-الخلوة.

معناها المباشر يتمثّل في أن تغلق على نفسك حجرة ليس فيها غيرك ولا يصل إليك فيها صوت ولا صورة، لفترة محددة. لا إنسان، لا تلفزيون، لا جوال، لا شخص ولا آلة. والهدف الأوّل منها هو تركيز الوعي في الباطن بدلاً من الظواهر. أي سحب

الوعي قدر الإمكان من الانتشار في ما حولك، وإدخاله في نفسك. وتستطيع أن تبدأ بجعل غرفة نومك هي محلّ خلوتك، وإذا استطعت أن تجعل غرفة خاصّة لها في بيتك فهو الأحسن، وكلّما كانت الغرفة أبعد من الضجيج والناس وكانت أنظف كلّما كان الأمر أفضل، مثلاً أن تكون الغرفة في السطوح أو تحت البيت في البدروم مثلاً. والأفضل أن تكون الغرفة صغيرة لأن كبرها سيؤثر على وعيك، وكانوا يتّخذون الخلوة من غرفة على قدر مساحة الجسم تقريباً وبقدر حركة الصلاة، حسناً حتّى إن لم تضيّق الأمر إلى هذا الحدّ لكن الأسلم أن تتخذ هذا الحدّ كمعيار ثم تتوسّع منه ولا تبتعد كثيراً عنه. هذا بالنسبة لما هي الخلوة.

أمّا بالنسبة لوقت الخلوة: إذا بدأت بأن تجعل لنفسك عشر دقائق في اليوم، ستكون بداية جيّدة. كأن تدخل الخلوة في الليل بعد الفراغ من الأشغال والعيال. أو في الصباح قبل الخروج من البيت. ثم قد تجعل لنفسك خلوة أطول وقتاً في الإجازات، سواء إجازة نهاية الأسبوع أو الإجازات الأطول، فتجعل لنفسك ساعة أو ساعات أو حتّى أيّام إن استطعت بعد ذلك. ابدأ بالقليل الذي تستطيع أن تداوم عليه، ثم اجعل الكثير لأيّام خاصّة تستغلّها لذلك.

بالإضافة لما سبق، تستطيع أن تسعى لأن يكون محلّ عملك خلوة، بمعنى أن تُهيئ مكتبك أو محلّ شغلك لانفرادك، أو تدخل

خلوة لبضعة دقائق في كل يوم أثناء فترات الراحة حين تستطيع. هذا لا يعني أن تصير مهووساً بالبحث عن غرفة خالية ووقت فراغ لتحبس نفسك فيها، وإنّما أنا أذكر الاحتمالات المتعددة للأمر حتى يأخذ كل شخص بما يستطيع أن يأخذ به ويمسك طرف الخيط منه.

البيت بشكل عام لابد أن يتمّ تصميمه وتهيئته نفسياً وماديّاً كأنّه خلوة كبيرة. أي يكون التصميم له ألوان وأشياء هادئة وساكنة، طبيعية وخضراء وجميلة، لا ضجيج زائد عن الحدّ أو إلا نادراً. الإضاءة في البيت تكون أيضاً أرضية وليست على السقف لأنها أهدأ للنفس والعين، وتكون إضاءة صفراء لا بيضاء كالتي يتّخذها من لا روح لهم كإضاءة الحمامات العمومية، الإضاءة عندي تؤثر على النفسية أكثر من أي شئ آخر، فإذا كانت على السقف وفتحتها في الليل فإنّها ستجعلك كأنك في النهار وهذا سيؤثر عليك التأثير السلبي الذي لسرمدية النهار لو كان سرمداً، وكذلك إذا كانت الإضاءة بيضاء فإنّها ستجعل تركيزك ووعيك يتشتت في المظاهر بطريقة حادّة وبشعة ولذلك يستعملونها في المعامل والمختبرات مثلاً حيث يحتاج الشخص هناك إلى التركيز بحدّة على الخارج لكنك لا تحتاج إلى ذلك في بيتك عادة خصوصاً في الليل الذي من المفترض أن يكون وقت عمل الروح والمعاد كما أن النهار وسط الأسبوع هو وقت عمل الجسم والمعاش. ومن هنا إشعار النار في الليل، لأن النار أرضية ولونها جميل، ولذلك كلّما

كان لون الإضاءة أقرب إلى النار–ناقص الحرارة في الأماكن الحارّة طبعاً–كلّما كان الأمر أحسن. وقد جرّبت الإضاءة بالنار في الليل مع إطفاء جميع الأضواء الكهربائية فوجدت حالاً عجيباً لطيفاً. إذن إضاءة أرضية لا سقفية، صفراء أو نارية لا بيضاء معملية. وحين تدخل بيتك ضع في قلبك نيّة دخول الخلوة والمسجد. واعمل على هذا الأساس. أي بيتك هو بيت ربّك.

...–...

٢–التأمل.

يوجد عدم فيه الوجود. والنظر في هذا العدم الوجودي هو التأمل.

في بادئ الرأي قد تعتبر العدم شئ مناقض للوجود، إلا أنك إذا نظرت في نفسك ستجد أنك لا شئ وكل شئ في آن واحد. فالوعي أو الطاقة أو النفس هو شئ واحد من حيث أنه لا كيفية مخصوصة له، لكن هذا الشئ الذي لا كيفية له قابل للتشكّل في كيفيات لامتناهية ذات طبقات مختلفة. مثلاً، إذا نظرت في فكرة معيّنة، ستجد فوراً أنها كيفية مختلفة عن فكرة أخرى مختلفة عنها وهذا بديهي. لكن ما هو الشئ فيك الذي يتحوّل لهذه الفكرة أثناء تفكيرك فيها؟ لنقل أنّك تفكّر في التوحيد والشرك. حين تفكّر في التوحيد أنت لا تفكّر في الشرك، وحين تفكّر في الشرك

أنت لا تفكّر في التوحيد، لكن يوجد شئ فيك قابل للتفكير في التوحيد والشرك، فما هو هذا الشئ؟ مثلا، أنت قادر على الشعور بالحبّ والكره، وأنت تعلم بيقين وجداني مباشر أن الحب شعور والكره شعور آخر مختلف عنه، هذا بالرغم من أنه يوجد فيك شئ لنسمّيه النفس أو الوعي أو ما شئت من تسميات طالما أنك عرفت المقصود، وهذا الشئ، هذه النفس قابلة للتحوّل وأخذ كيفية الحب وقابلة أيضاً للتحوّل إلى ضد الحب وهو الكره، ثم حبّك لشئ معينّ قد يتغيّر إلى كره لاحقاً، كما أن كرهك لشئ معينّ قد يختلف ويتبدّل ويصير حبّاً جامحاً، إلا أنك أنت أنت كما أنت في الحالتين بمعنى أن هذا السر الذي فيك، ذاتك المجرّدة، قابلة للتشكّل في الحب والكره معاً ولكنها لا تتقيّد بتقيّد مطلق لا في هذا الحب ولا ذاك الكره. مثلاً، أنت قادر على تخيّل شئ، وأشياء كثيرة جدّاً، سواء أثناء النوم أو اليقطة، ولكن أنت قادر أيضاً على عدم تخيّل شئ، فأنت لا تتخيّل ثم تتخيّل، تتخيّل ثم لا تتخيّل، بالرغم من أن وعيك هو هو قبل الخيال وبعده من حيث حقيقة هذا الوعي، بدليل أنك قادر على إلغاء التخيّل. إذن، ذاتك هي شئ غير محدود في الفكر أو الشعور أو الخيال. لكن ذاتك أيضاً هي شئ قابل للتشكّل بصور لامتناهية من الأفكار والمشاعر والخيالات. هذه الذات هي موضوع التأمل، وهذه الذات هي القائم بالتأمل. لا فرق بين الموضوع والناظر في الموضوع في التأمل. أنت فاعل

التأمل وموضوع التأمل، أنت من حيث ذاتك المجرّدة المطلقة. أنت من حيث ذاتك الواحدة والكثيرة. التأمل هو أن تعرف هذه الذات. التأمل أن تكتشف أنك هذه الذات. التأمل هو أن تتحرر من اعتقاد أن هويتك محددة بهذه الفكرة أو تلك، بهذا الشعور أو ذاك، بذلك الخيال أو غيره، وبالتأكيد أن تتحرر–وهو أسهل تحرر وأصعبه–من اعتقاد أن هويتك تتحدد بحسب جسمك، وهذا تحرر سهل لأنك ترى فعلياً كيفية تبدّل جسمك من الطفولة فما بعدها، وكذلك تبدّل جسمك كل يوم، وكذلك كونك تشعر بأنك إذا فقدت عضواً فأنت لا تفقد ذاتك وإذا غيّرت تسريحة شعرك لا تفقد ذاتك من حيث جوهر وعيك. وقطعاً قطعاً التأمل يتضمّن أن لا تقيّد هويتك وقيمتك بحسب علاقاتك الخارجية الطبيعية والاجتماعية، فهذه قمّة السفالة في الوعي والمعرفة، إذا كنت لا تقيّدك هويّتك بحسب أفكارك ومشاعرك وخيالاتك، وهي أمور لصيقة بك قريبة منك، وكنت لن تقيّد حقيقتك بجسمك المتبدّل الفاني المتغيّر الذي تشعر بأنه منفصل عن جوهرك بنحو ما من الانفصال، فمن باب أولى وأولى أن المتأمل لن يقيّد قيمته وهويّته في علاقاتك الوهمية والعرضية والزائلة بأموال مثلاً أو أشخاص أو أشياء في الطبيعة. التأمل هو الحرية الحقيقية الكبرى. ولا حرية بدون التأمل.

ولـذلـك بـعد الخلوة ذكرنـا الـتأمـل. لأن الخلوة تـعينك عـلى مواجهة جسمك وخيالاتك ومشاعرك وأفكارك ورؤية أنها ليست أنت من حيث ذاتك وحقيقتك. فالخلوة باب وقشرة التأمل. لكن التأمل لبّ الخلوة. وبدون الوصول إلى حقيقة التأمل لا قيمة للخلوة بل هي نوع من العبث، لأنك لن تكون في خلوة باطنية بسبب لعبك بالأفكار والمشاعر والخيالات وسيطرتها عليك، فما قيمة الانفصال الصوري عن البشر من حولك إذا كنت لن تنفصل عن الفكر في داخلك. الخلوة سبب، التأمل هدف ومركز.

وهذا التأمل يمكن القيام به في اليوم كلّه، وفي أي مكان، لأنه مجرّد عن المكان والزمان في حقيقته، ولذلك قابل للتحقق في أي مكان وزمان وحال. فبالإمكان استغلال وقت الذهاب والعودة إلى شغل المعاش في التأمل، استغلال دقائق من أوقات الراحة أثناء النهار في التأمل، تخصيص دقائق ولو عشرة كل ليلة بعد الفراغ من الأشغال المعاشية والأسرية للتأمل، وتخصيص وقت أطول كساعة أو ثلاث ساعات للتأمل في نهاية الأسبوع أو وقت الإجازات والاختلاء بالنفس، ويمكن أيضاً أن يكون وقت قعودك في الحمام للتأمل (هذا كلام فصل ليس بالهزل). التأمل ممكن في الحركة والسكون وإن كان في السكون أيسر وأفضل، والدخول فيه لا يحتاج إلى مقدّمات لأن المقدّمات أسباب والعقبات وقيود بينما

حقيقة التأمل متعالية على كل هذه الأمور. فلا عذر لأحد في ترك التأمل.

ومن التأمل تنتقل إلى العمل الثالث في الطريقة والعمل الثالث يجد معناه بعد التأمل فقط. فتعالوا ننظر.

...–...

٣–الذكر.

الذكر يدور كلّه حول اسم (الله). فبعض الأذكار عبارات متعلّقة بالاسم، مثل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلا بالله، وبعض الأذكار سِمات متضمّنة في الاسم، مثل العليم والحكيم والرحيم والقهار واللطَيف. والذكر كلّه إمّا بالاسم المفرد {الله}، وإمّا بالعبارات وإمّا بالسِّمات. وذكر القلب المجرّد هو مرحلة لا علاقة لنا بها في هذه المرحلة من شرح الطريقة. فكلامنا عن الذكر بالكلام، بالتالي توجد حركة لسانية أو إمرار للكلمة على القلب ولو بدون تحريك اللسان ظاهراً.

أمّا الذكر بالاسم المفرد، فالمريد لوجه الله عليه أن يكون هذا الاسم على لسانه دائماً وفي قلبه دائماً ما استطاع إلى ذلك سبيلاً بدون تضييع حق أو إفساد عمل أي يذكر مادام الذكر لن يشغله عن حقوق أو أعمال معيّنة. فهو الذكر الدائم. تقول {الله الله الله} في أي وقت وعلى أية حال. وبالإمكان أيضاً اتخاذ الاسم المفرد كورد كأن تذكره مائة مرّة كل صباح ومساء مثلاً.

أمّا الذكر بالعبارات، فأيضاً الأصل في المريد أن تكون هذه العبارات هي الطريقة التي يعبّر بها عن انفعالاته ومراداته وغاياته في كل شؤون حياته، فإن حصل له أمر يريده يقول الحمد لله، وإن أراد أن يعمل شئ غداً يقول ما شاء الله، وإن أصابه شئ فوق طاقته يقول لا حول ولا قوّة إلا بالله، وهكذا، ولا تنحصر هذه العبارات في هذه الحالات التي ذكرناها لكنّي أضرب مثالاً فقط. بالتالي، الذكر بالعبارات ينبغي أن يحيط بحياة المستقيم على الطريقة من جميع جوانبها. ومع ذلك، قد يخصص لنفسه أوراداً كأن يسبّح ويحمد ويهلل ويكبّر ويحوقل مائة مرّة كل يوم في وقت يختاره لذلك.

أمّا الذكر بالسِّمات، فيصلح استعمال هذا الذكر كما تذكر بالاسم المفرد، أي أن تقول {اللطيف اللطيف اللطيف}، أو يصلح استعماله بطريقة الذكر بالعبارات كأن تقول {سبحان اللطيف، لا نور إلا هو، الله كريم} ونحو ذلك. ويصلح أيضاً استعماله بطريقة الدعاء وهي {يا لطيف، يا كريم، يا جبّار} ونحو ذلك. ويمكن اتخاذ أوراد للأسماء، كأن تخصص لكل يوم اسم من الأسماء الحسنى تذكره فيه حتى تختمها ثم ترجع كما تختم القرءآن. ويمكن الاعتياد على ذكر كل اسم بحسب المواقف المناسبة له في الحياة والمشاعر التي تطرأ عليك وهو الفقه الأعظم في الأسماء الإلهية. ومن الصيغ الجامعة للذكر بالسمات أن تقول {هو الاسم والاسم هو،

لا اسم إلا هو} فتضع الاسم الذي تريده مكان لفظة "الاسم" في الجملة. مثلاً {هو النور والنور هو، لا نور إلا هو} و {هو الكريم والكريم هو، لا كريم إلا هو}.

الذكر بداية تخلل الألوهية في وجود المستقيم على الطريقة. وإذا كانت الخلوة تفرّغ، والتأمل تجرّد، فالذكر حرية الذات من كل قيد وامتلاء الروح بكل خير. الذكر هو الطريقة كلّها وهي محيط هو قطبها.

...–...

٤–الفكر.

التفكير هو اكتشاف الذوات والصفات والعلاقات. فهو النظر في الوجود مطلقاً بدون أي قيد أو شرط. وتقييم جميع النظريات والعمليات الإنسانية مطلقاً بدون أي قيد أو شرط. والحد الوحيد للتفكير هو حد يأتي من نفس التفكير بعجزه وإدراكه لعجزه بذاته في ذاته وليس عن طريق حدود خارجية توضع عليه. وكل تفكير يرجع إلى إدراك الذوات، بمعنى معرفة أن الشئ موجود أم لا، ثم إدراك صفات هذا الشئ الموجود مثلاً كمّيتها وكيفيتها، ثم إدراك العلاقات بين الذات وصفاتها أو بين الصفات بعضها البعض أو بين الذات الموصوفة والذوات الأخرى. وتعريف التفكير بهذا النحو من التجريد هو الأصل لأن التفكير ينطبق على مجالات متعددة لانهاية لها، ولذلك حصره في صورة تعريفية معيّنة يُعتَبَر خللاً

وتقييداً له وهذا التقييد دائماً غير مبرر ومبني على التحكّم والهوى والاختلاق.

التفكير عملية خلق داخل النفس الإنسانية. فبتفكيرك تخلق نفسك وتشكّل وعيك وتلوّن باطنك. ولذلك كلّما ازداد طول وعرض وعمق تفكير الإنسان كلّما ازدادت سعة وقوّة وعظمة باطنه ونفسيته ووعيه بالوجود. إلا أنه لكون التفكير صناعة داخل النفس، فقد تكون صناعة منتجة لما يقوّي النفس وينظّمها وقد يكون أيضاً لما يشتت النفس ويفرّقها ويقسّمها على أعضائها ويُشعل التضارب بينها. فالتفكير خطير لأنه خطير.

التفكير سعي لإدراك الوجود وقابليته للتغيير وحدوده وإمكاناته وعلاقاته وأسبابه وآثاره. فهو يدور مدار الوجود بما هو واجب أو ممكن أو ممتنع فيه. فهو اتصال يعقبه انفصال، لأنه لا تفكير في العدم فيجب الاتصال أوّلاً بموجود ما حتى تكتسب المشاهدات ثم بعد ذلك يأتي الانفصال حتى تنظر في ما اكتسبته وتبحث فيه وتقلّبه وتنظر في علاقاته بالمشاهدات الأخرى. والمشاهدات هنا تعني الظاهرية والباطنية على السواء، الطبيعية والنفسية.

حين تفكّر في شئ فأنت لا تفكّر في غير هذا الشئ الذي تفكّر فيه. وهذا بديهي. فالتفكير تكفير، تكفير بمعنى تغطية وستر للوعي بحبسه على فكرة معيّنة دون ما سواها. ولذلك كل

فكر يتضمّن الكفر، ليس كفر الإيمان والأديان بل كفر الشهود والعيان، كما أنك إذا كنت تفكّر في رياضة الجسم مثلاً فأنت لا تفكّر في تربية الأطفال، وحين تفكّر في علاقات الكواكب ببعضها فأنت لا تفكّر بعلاقات الأسماك بالشعب المرجانية، وهكذا. التفكير في شئ إقصاء لأشياء. والفكر لا ينظر إلا في شئ واحد في كل لحظة، ولا يستطيع إلا ذلك، نعم قد يفكّر في شئ وبعده شئ آخر ويحفظ الأوّل ثم يربط الثاني به، لكن هذا الحفظ غير التفكير نفسه، فهذا لا يشوّش على قولنا "التفكير في شئ إقصاء لغيره". وبما أن الموجودات لانهاية لها، والفكر ينظر في شئ واحد فقط في كل لحظة، فكل فكر هو تغطية وستر للموجودات كلّها باستنثاء شئ واحد. ومن هنا قد يشعر المفكّر- من حيث لا يشعر أو يشعر-بالضيق ويكره التفكير، لأنه تقييد للوعي في موجود محدود دون سواه. والمخرج من هذا الضيق يكون بحقيقتين: الأولى، أن كل موجود يتضمّن في عين ذاته جميع الموجودات، لأن كل شئ متّصل بكل شئ وكل شئ يتضمّن الحقيقة الوجودية الجوهرية التي تتجلّى في كل شئ وبكل شئ لأن الكل موجود فالكل يشترك في هذه الموجودية. الحقيقة الثانية، التفكير في الحق تعالى هو تفكير في كل شئ، لأن الحق محيط بكل شئ ومتعالٍ على كل شئ، فالتفكير فيه وإن كان حبساً للوعي في واحد إلا أنه تحرير للوعي لأن هذا الواحد مطلق لا يتقيّد تقييداً

مطلقاً في شئ. إذن، التفكير في الموجود المحدود يحجب الوعي من جهة إلا أنه يتضمّن تحرير الوعي من حيث اتصال الموجودات ببعضها، فهو قيد ظاهري في تحرير باطني. لكن التفكير في الوجود اللامحدود يحرر الوعي من جهة أنه نظر في الواحد المطلق المحيط، إلا أنه يحجب عن الوعي تفاصيل الموجودات المحدودة والجزئية والمقيدة، فهو تحرير ظاهري في قيد باطني. ولذلك لا يكون التكفير محرراً تماما التحرير إلا بالجمع بين التفكير في الوجود المطلق وفي الموجودات المقيدة. هذا في حين وذاك في حين. ساعة وساعة. فالفكر يتقلّب كما يتقلّب الليل والنهار، والموت والحياة. ولا يستطيع الإنسان أن يوقف تفكيره تماماً، كما أنه لا يستطيع أن يُعدم الطبيعة حوله تماماً.

بعد هذه المقدمات، نسأل: كيف تجد وقتاً للتفكير؟ وأحسب أن الأجوبة الممكنة صارت قريبة بعد تلك المقدمات. فبما أن التفكير يكتسب مادّته من الوجود، وأنت متّصل بالوجود ما دامت فيك ذرّة يقظة وحياة، فكل ما في نفسك وما في الآفاق حولك هي مواد ومواضيع وأسس للتفكير. فالمفكّر ليس إلا الذي يستفيد من الوجود ويجرّب وينظر ويحسب ويتدبر في الموجود. إذن، كل أحوالك قابلة لأن تكون نافعة لك في تفكيرك. فالانتباه وتذكر الأحداث والربط بين الأمور هو الأصل هنا. وهذا شئ ممكن على مدار اليوم أيا كان ما تعمله وأيا كان الحال الذي أنت فيه بلا

استثناء. فالفكرة جَنّة حاضرة. هذا من باب الاتصال. ومن باب الانفصال، أي لأنك تحتاج إلى نوع عزلة وهدوء لكي تنظر في عقلك وتُعمله في مشاهداتك وتجاربك وأغراضك، فلابد من استغلال أوقات الفراغ في اليوم قدر الإمكان من جهة، لابد من وضع وقت مهما كان قليلاً لإعمال العقل كل يوم بنحو منظّم ومركّز. مع العلم أن الانتباه خلال اليوم وحده هو جزء كبير من تنمية ملكة التعقل وقوّتها حتى يصير مع الوقت ربطك وإدراكك سريعاً إلى حد كبير، مع تذكر أن هذا وحده لا يكفي في انتاج معرفة كبيرة وذات بال وتأثير إلا أنه مقدمة جيّدة على أية حال.

...–...

٥-الكتابة.

الكتابة تجسيد الروح وتمثيل العقل وتكثيف الشعور وتجسير الخيال وتنزيل الوعي. فالكتابة حركة من أعلى إلى أدنى لأنها حركة من الغيب إلى الشهادة، من العلوي إلى الطبيعي. والعالَم في حقيقته حركة مستمرة ما بين صعود وهبوط، نزول وعروج، لأن مبدأ العالَم هو "الأوّل" و "الآخر" ولذلك لابد من صدور أمور من الأوّل فهذه الحركة النازلة، ثم لابد من رجوع ما صدر إلى أصله فيكون هو الآخر وهذه الحركة الصاعدة. ولا ينفكّ العالِم عن الحركة، لأنه حيّ إذ مبدأ العالَم هو الحي ولا يصدر عن الحي إلا حي ولذلك حتى الآخرة ليست إلا "يوم تبدّ الأرض غير الأرض والسموات"

وليست إعداماً للسموات والأرض بالكلية، والتبديل نوع حركة وتغيّر. كذلك الحال في الكتابة. فالوجدان لأنه في تغيّر مستمر، ما بين قابلية وفاعلية، فلابد أن يجد متنفساً لما فيه. إلا أن تجسيد ما في الوجدان الإنساني في الطبيعة والمجتمع لا يمكن أو لا يتيسّر دائماً وفي الوقت المناسب وبالكيفية المناسبة، لا أقلّ بسبب الحدود الطبيعية والقيود الاجتماعية الضرورية واللازمة لحسن سير الحياة بين الناس، فلا يستطيع كل مَن يرفض شيئاً مثلاً أن يجسّد رفضه بواسطة فعل يغيّر فيه المرفوض عنده لأن ما يرفضه هو قد يقبله ويرضى به كل من سواه من الناس فإذا بدأ هو يفرض بالفعل وهم يفرضون بضد الفعل وقع النزاع الفعلي العنيف بالضرورة وهو أمر مرفوض عند الإنسان السليم عادة. وهنا تأتي الكتابة. لأنها تسمح بتجسيد الوجدان والرأي في صورة كلمة باقية عابرة (على خلاف التلفظ المجرد الذي يفنى بمجرد النطق به ولا تتجاوز نطاق سماعها بينما الكتابة تبقى بعد صاحبها وقد تتجاوز الكون كلّه ما دام مادّتها باقية ومنقولة باستقلال عن الكاتب وحتى عن البشر المتلقّين لها، فالتلفظ مقيّد عادة بالزمان والمكان لكن الكتابة قابلة لتجاوز الزمان والمكان، أي زمان ومكان المتكلّم). وبذلك، يجد الإنسان متنفّسه من جهة، ويجد وسيلة جيدة لإبقاء فكرته وإرادته بنحو يتجاوز شخصه. وبهذا الاعتبار الأخير، أي تجاوز الشخصية الطبيعية، الكتابة تفتح للإنسان أفق

الخلود في الطبيعة، فالطبيعة الأصل فيها فناء وهلاك الأشياء إذ كل حي يموت وكل مركّب ينحلّ، لكن الكتابة تعكس هذا الأمر بقدر كبير جداًّ يكاد يكون مطلقاً، حتى إن الكتاب الواحد قد يبقى من أوّل الزمان إلى آخره بدون أن يتغيّر منه حرف واحد. ولذلك الكتابة عمل فوق طبيعي وإن كانت تتم بشكل طبيعي. وللكتابة عمل مهمّ آخر وهو عدم إكراهها للمتلقّي في الاطلاع عليها، على خلاف التلفظ الذي قد يكون إكراهياً أحياناً مثلاً حين يتكلّم شخص بجانبك في موضوع أنت لا تريد سماعه كأن تكون في طائرة أو قطار، فمجرّد تواجدك في مجال تردد الصوت يجعلك عُرضة لسماعه (نعم، يحق لك أنت أيضاً أن تتكلّم مثل أولئك فيسمعونك كرهاً، أو تستطيع أن تضع شيئاً في أذنك فلا تسمع "وجعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم"، فلا إكراه حقيقي في الأمر بتلك الصورة، لكن مع ذلك المعنى مفهوم ومجرّب)، الكتابة لا يوجد فيها حتى هذه الدرجة من شبه الإكراه، لأنها تتمّ بالعين أو اللمس مثلاً، وأنت تملك توجيه وإغلاق عينك ويدك، هذا من جهة، ومن جهة أخرى وهي الحالة الاعتيادية للكتب فإنك لتقرأ كتاباً لابد من أن تأخذه وتفتحته وتطالعه، وكل ذلك أنت حرّ فيه. فالكتابة أعلى من الخطابة في احترامها لحرية الإنسان في اختيار ما يدخل فيه من كلمات. ولذلك الكتابة أشرف من الخطابة وأكرم. لكل تلك الاعتبارات وغيرها، الكتابة عمل أساسي من أعمال

الطريقة. فكل ما ينتج عن الأعمال السبعة الأخرى للطريقة، يجب أن يجد طريقه إلى الكتابة أو من الأفضل لو وجد طريقه إليها، فمثلاً التأمل له نتائج يمكن الكتابة عنها أو الكتابة عن نفس التأمل، كذلك الذكر والفكر والخلوة والقراءة والدعاء والمجالس. فالكتابة هي المركز الذي تتجمّع فيه أشعة أنوار الأعمال السبعة الأخرى، إذ كل ما هو موجود يستحقّ تحويله إلى صورة كلامية، وبذلك يدرسه الناس ويحفظونه ويبنون عليه. وحين تكتب الفكرة مثلاً ستنظر إليها بنحو انفصالي، أي بصورة منفصلة عنك، خلافاً للنظر في الفكرة وفي مجردة في ذهنك، فإنها حينها توهمك أنها جزء من ذاتك وشخصيتك، ومن هنا ينشأ التعصّب الذي هو دفاع عن النفس عن طريق الدفاع عن الأفكار التي يتوهم صاحبها أنها تشكّل جزءاً جوهرياً من نفسه فيدافع عنها دفاعه عن نفسه، بينما الواقع أن النفس خالية من هذه الأفكار بدليل أنها لم تكن عنده ثم حصلت وبدليل أنه يقدر على تغييرها بنقدها والاطلاع على غيرها وبدليل أنه يستطيع عدم تفعيلها إن شاء كالجاحد للشئ بعد استيقان نفسه بحقيقته وحقانيته. فمن أهمّ ما يساعد العقل على النظر في محتوياته وأعماله وسلوكياته هو أن يجسّد ذاته قدر الإمكان في شئ خارجه حتى يصير كالمرآة له التي ينظر فيها فيرى نفسه. نعم، هذا سيعتمد على مدى وضوح المحتوى العقلي للعقل حتى يستطيع كتابته، ويعتمد على مدى القدرة التعبيرية اللسانية

عند العاقل حتى يعبّر عن ما في عقله، والأهمّ من ذلك أن يملك من الشجاعة ما يكفى ليواجه نفسه. فإذا مزجنا الوضوح والشجاعة والبيان، استطاع العقل تجسيد نفسه بنحو مباشر وصريح فيرى نفسه في صورة كتابته.

ماذا تكتب؟ كل شئ. تبدأ من نفسك وما يدور فيها، وتنتهي دائماً إلى نفسك. مروراً بكل شئ يهمّك ويهمّ الناس لأن الكتابة هي للنفس أوّلاً، وللناس ثانياً، وفي بعض الحالات يمكن أن تؤثر الكتابة على المحيط الطبيعي والوجود الخارجي كما في حالة بعض الكتابات المقدسة والقوية والنافذة.

متى وأين وبماذا تكتب؟ في أي وقت تجد في قلبك ما يريد الخروج والبروز والنزول. لا تضع لنفسك طقوساً وقيوداً تحبسك عن الكتابة بأي شكل من الأشكال وأيا كان تبريرها. وقد نظرت في أقوال مختلف الكتّاب في هذا الباب، فمنهم من يرى أن أفضل الكتابة في النهار أو عند الفجر أو في الليل أو بعد كذا أو قبل كذا، وكلّه كلام لا طائل تحته على التحقيق بالنسبة لك وكلام ينقض بعضه بعضاً، ومدار الأمر عليك أنت، وعلى المعنى المحجوب الذي يريد التهتك والبروز في صورة المكتوب. وأما أنا فأكتب وأنا قائم وجالس ومستلق على جنب وعلى ظهري، أكتب في الليل والنهار، في الجوع والشبع، في الغضب والرضا، في المزاج الرائق والمزاج المتهور المتفجر، وأكتب بقلم الرصاص على

ورقة صغيرة قطعتها من غطاء علبة كما أكتب على كمبيوتر أو دفتر أو جوال أو غير ذلك. لا أقيّد كتابتي بآلة ولا مكان ولا زمان، فطالما أن الحرف يريد أن ينرسم أبحث عن أحسن شئ حولي وأستعمل ذلك، نعم قد أختار وقتاً في بعض الأحيان أو مكاناً أو آلة محددة دون سواها لكن ذلك لكتابة بعض الأمور فقط مثل هذه المقالة، إلا أني مع ذلك لا أجعل هذا قيداً مطلقاً عليّ إذ قد يخطر لي الشئ وأنا خارج بيتي فأكتبه في جوالي أو على منديل في مطعم أضع رأس قلم الموضوع وأبسطه بعد ذلك، وهكذا. فالقيد استحساني لا إطلاقي. وكما أني أكتب في مكتبي أكتب في جميع غرف بيتي، أو خارج بيتي حتى السيارة ومرّة كتبت شرحاً طويلاً لبيت شعر صوفي وأنا في قسم شرطة أثناء الانتظار من أجل معاملة! (من أهمّ ما كتبت بالنسبة لي) إذ هجم عليّ الخاطر فطاوعته بحبّ وسلّمت له تسليماً وتركته يمشي بي كما يشاء. الخلاصة، بما أنك تكتب كعمل من أعمال الطريقة وليس من أجل الحصول على وظيفة أو أخذ أجرة، فدع عنك التكلّف والكذب والبرود والخداع والتزوير وقول ما لا تعتقد وقول ما لا تحب سماعه أو قراءته وكل قيد قبيح آخر من هذا النوع. لا تكن بيّاعاً للكلام، واكتب كأنه لن يقرأ هذا الكلام غيرك ومن تحبّه مثل حبّك نفسك. ودع الباقي يأتي بحسب التيسير بدون تكلّف يكدّر القلب أويشوش العقل أويقتل الروح أويطمس البصيرة.

لمن تكتب؟ الأصل أن تكتب لنفسك لأن الكتابة مثل الصلاة الأصل فيها أن تنفعك أنت، وإن كان لها آثار جانبية جيدة للآخرين والعالَم حولك فتلك قضية أخرى. هذا هو الأصل. بعد ذلك، قد تكتب للآخرين في مواضيع تهمهم إن كنت تفهم فيها، لكن لا تنسى نفسك أبداً أثناء ذلك. ولنسيان النفس أبعاد كثيرة، من بعضها أن تصبح تاجر كتب بدلاً من كاتب. فتكتب فقط لتكسب الزبائن والأتباع، وحينها ينحطّ حرفك مع زوال حريتك، وينسجن وجدانك مع خسران كرامتك.لا تكتب شيئاً للآخرين أنت غير مستعد على قراءته أو نصح أولادك بقراءته. اكتب لتكتشف وتكشف روحك. هذا هو المعيار الأكبر في أي كتابة ذات بال ولها حسن مآل. ثم ليس بالضرورة أن تنشر كل ما تكتب، ولا حتى لأقرب المقرّبين إليك. أن تكتب وتدفن ما تكتبه، أفضل من أن لا تكتب. أن تكتب أي شئ أفضل من أن لا تكتبه.

آخر ملحوظة: من الأمور التي ساعدتني في إعطاء أكبر مساحة لكتاباتي، تقسيمي للمكتوبات إلى أربعة أقسام: الأقوال والمقالات والكتب والموسوعات. ففي كتاب الأقوال أضع أي خاطر أو سؤال أو ملحوظة أو فكرة سريعة ومختصرة لها محور واحد عادة خلال اليوم كلّه، ولا أستثني خاطراً من وضعه في هذا القسم. وفي قسم المقالات أضع المقالة التي لها فصول متعددة أو طويلة إلى حد ما (وهذا تقديري بحسب نيّتي أثناء الكتابة، فإني قد

أضع في الأقوال ما هو أطول من المقالات لأن نيّتي أثناء الكتابة في الأقوال كانت ملحوظة قصيرة لكنّها امتدت أو لأني أردت إعداد القارئ وجعل وصلة بين الأقوال والمقالات. لكن نيّتي في المقالة أن تكون أطول عادة ولها أبعاد أكثر.). وفي الكتب أضع الفصول التي كل منها يشكّل مقالة وتدور حول موضوع كبير لكن فيه مواضيع صغيرة متعددة. ثم الموسوعة هي مجموعة كتب بينها رابط عام. بهذا التقسيم كل فكرة أو شعور أو خيال أو إحساس أو شرح أو بيان يمكن أن يجد له مكاناً في خزائن كتبك.

...–...

٦–القراءة.

جعلت القراءة بعد الكتابة لأسباب: منها أن الأصل في سالك الطريقة أن يتعرف للوجود مباشرة وليس بواسطة اللغة وحكايات الآخرين وأفكارهم عن الوجود. ولذلك الأعمال الأولى هي الخلوة والتأمل والذكر والفكر، وهي طرق التعرّف إلى الوجود واختباره مباشرة. ثم بعد ذلك يأتي عمل التعبير عن خبرتك وتفكيرك الذاتي وذلك بالكتابة. ثم بعد الكتابة القراءة، لأنك حينها لن تضيع محوريتك ذاتك ومعرفتك المباشرة، بالغرق في أقوال الآخرين، بل ستبقى متمركزاً حول قلبك الخاص وعقلك الشخصي الحي الحيوي. ومنها أن أفضل القراء هم أفضل الكتّاب، لأن الذي يمارس العمل يعرفه أفضل ممن لا يمارسه، كما أن المهندس يعرف

المهندس أكثر من غير المهندس، والطبيب يستطيع تقدير عمل الطبيب أفضل من غير الطبيب، والموسيقار يستطيع الحكم على تأليف موسيقار آخر ومعرفة دقائقه وحيثياته وكيفية تجاوزه للصعوبات الصناعية أكثر ممن ليس موسيقاراً، كذلك الكاتب-أيا كانت درجته-سيكون أكثر تقديراً ومراعاة وأدباً وتعمقاً في العادة مع كتب الآخرين ممن ليس بكاتب بل هو مجرّد قارئ مستهلك. اكتب ثم اقرأ، لا تقرأ ثم تكتب. الذي يكتب ثم يقرأ، يبقى صوته الشخصي حياً، لكن الذي يقرأ ثم يكتب عادة ما يصير مقلّداً وببغاءً ومشوهاً ويختلط نمطه الخاص مع أنماط غيره وتضيع فرديته وأصالة عقله وفرادة تجربته.

سبب آخر لذكرنا القراءة بعد الكتابة هي طبيعة الحركة الوجودية. فالكتابة تنزّل المطلق في المقيد، والتجسيد الطبيعي للفكر المجرّد. والقراءة عكس ذلك، هي عروج المقيد إلى المطلق، وتجريد المجسّد. ففي الكتابة الفكرة تسبق اللغة، لكن في القراءة اللغة تسبق الفكرة. والذي يبدأ من فوق-أي من المطلق-يتأسس فوق ويتمركز فوق، بينما الذي يبدأ من تحت فإنه يتوه تحت وقد يقيّده التحت إلى حد أنه يعجز أو يكسل أو يكفر بالفوق. الفوق قليل محكم،. والتحت كثير مشتت، فعليك بإحكام الفوق قبل النزول لتحت. ألا ترى الذين يقرأون كثيراً يكونون عادة أغبياء بامتياز، أقصد الذين يقرأون بدون أن يكونوا قد تأسسوا في الخلوة

والتأمل والذكر والفكر والكتابة، أو شئ من هذه الأمور على الأقلّ. عقلهم المختلط الملخبط لا يستطيع أن ينظّم ويفهم ويتعامل مع الكثرة المشتتة للكتب الموجودة ، ثم حين يدخل في الكتاب الواحد لا يستطيع عادة التعامل معه بنظرة شمولية أوسع منه بحيث يضع ما يريد في هذا الكتاب في إطار منظومة كلّية أو إطار عام تجد فيه هذه الأجزاء المخصوصة محلّها المناسب أو لا أقلّ تجد محلاً يناسبها ويعطيها معنى ينفع القارئ في رؤيته الخاصّة وتجربته الشخصية في الوجود. القراءة قد تكون عملاً من عمل الأحرار، وقد تكون مزيداً من القضبان في سجن الأغرار. لذلك القراءة لا تأتي في أعمال الطريقة إلا بعد غيرها من الأصول. فكّر فيها، الذي كتب الكتاب الذي تقرأه أنت، كيف كتبه؟ لابد أنه هو أو مَن نقل عنه رجع في نهاية المطاف إلى شئ من الخلوة والتأمل والذكر والفكر، أي لولا وجود صلة مباشرة بالوجود بنحو ما لما استطاع أن يكتب ما كتبه ويحكي ما حكاه. فلماذا تأخذ ظلّ الشخص ولا تأخذ أصل الشخص. كتابته ظلّ، تجربته أصل، فعش مثل تجربته أوّلاً ثم تعامل مع كتابته بعد ذلك. التجربة أعلى من القراءة، وأي كتاب يستحقّ القراءة هو كتاب صدر من صاحب تجربة مباشرة وحية غير مقلّدة وغير مصطنعة.

حين تباشر الوجود بنفسك ثم تكتب، ستجد في قلبك معياراً تميّز به بين الكتب التي تستحق أن تقرأها وتنفق فيها من وقتك

وطاقتك وبين الكتب التي بخلاف ذلك. وهذا يكشف لك عن جواب سؤال كثيراً ما سمعناه وهو: ماذا أقرأ؟ يأتي إلى شخص ويقول: أنت تدعوني إلى القراءة حسناً فماذا أقرأ؟ كونه يسأل مثل هذا السؤال يدلّ على أنه غفل عن أمرين: الأوّل، سؤالك يدلّ على شدّة انحصار بل موت عقلك واتصالك بالحي المُدرك للوجود، لأن معناه أنك لا تجد فائدة في القراءة مما يعني أنك لا تجد فائدة في زيادة معرفتك بالوجود، مما يدلّ أنك تتعاطى مع الوجود كشئ مقيّد محصور قد استنفدت حدوده بإدراكك الحالي، وهذا معناه موت العقل وشلل التجربة. الأمر الثاني، سؤالك يدلّ على فقدانك للأولويات، أنت تظنّ أن القراءة عمل مقصود لذاته في أوّل الأمر، ولا تنظر إلى مصدر الكتب نفسها. فلو كنت ممن يسعى في إدراك الوجود والعمل فيه عملاً معقولاً، لتعلّقت بالكتب تعلّقاً عظيماً، لأنك ستعرف حينها سعة الوجود ومحدودية تجربتك، فتطلب توسيع تجربتك بإضافة تجارب وأفكار وآراء الآخرين إلى ما عندك، وحيث أن الوجود مطلق لامتناهي، فأنت بحاجة إلى مالانهاية له من التجارب والآراء حتى تحيط بالوجود ويستحيل أن تحيط به لأنه المحيط بك، بالتالي لن تشبع من الكتب ولن تملّ من القراءة أبداً. فبدلاً من السؤال عن كتب لقراءتها، اسأل عن جذر القراءة الذي هو المعرفة الحية المباشرة للوجود. بعد ذلك ستعرف ماذا تقرأ. هذا هو الجواب المهمّ. دونه في الأهمّية أن نشير على السائل بما يمكن–

مع احتمالية ضئيلة طبعاً-أن يثير فيه حبّ المعرفة وتوسيع أفق عقله في النظر إلى الوجود، ومن هذا المنطلق يمكن أن نقترح عليه كتباً عرفانية أو فلسفية أو طبيعية أو جدلية أو تاريخية تحكي سيرة العلماء وطلاب المعرفة عموماً، لعلّ ذلك يفتح له باباً، وإن كان-بحسب تجربتي المحدودة-أن هذا لا ينفع في الدخول المحكم للشخص في الطريقة. إلا أنه أفضل من لاشئ. مع ملاحظة أنه قد يكون أسوأ من لاشئ في بعض الحالات، كما لو قرأ شيئاً وصدف أن يكون يجلب شؤماً أو بغضاً لشأن المعرفة والبحث من الأساس، مثل تحزّبات المفكرين أو اضطهاد المجددين أو الخلافات غير القابلة للحلّ للمتفلسفين أو تعصّبات المتدينين وما إلى ذلك من نقاط سوداء لا يخلو منها عالَم الإنسان فتنفّره هذه ومع شيطنة طبعه يظنّ أن الأفضل هو الابتعاد عن هذا الطريق بالكلية، وكأن ما هو فيه من الجهالة يخلو من نقاط بل من جبال سوداء ! على أية حال، كل فرد مسؤول عن نفسه، وليس علينا الإكثار من هذا الأمر لأنه في النهاية كل فرد سيجد في نفسه وخارجه جزاء عمله وسعيه، إلا أنه ن باب المرحمة نشير إلى هذا الجانب.

ماذا نقرأ؟ بالنسبة لي، مَن يدخل مكتبتي لا يستطيع أن يعرف رأيي، لسبب بسيط وهو أنني أقرأ قدر الإمكان من كل صنف ولون، من كل بحر قطرة وأسعى أن تكون هذه القطرة معبّرة عن النمط العام لذلك البحر. ولو كان باستطاعتي، لبنيت مكتبة

فيها كل كتاب على وجه الأرض بلا استثناء. فالقراءة عندي مطلقة في أصلها. ولكن، بعد ذلك لأن العمر قصير والعلم كثير والرأي أكثر والأدب أكثر وأكثر، فإن لي سلّم أولويات في القراءة مبني على ما شهدته في نفسي والعالَم. فمثلاً، كتب الإلهيات فوق كل شئ، لأن الله فوق كل شئ. ثم كتب العرفان العملي والتصوف، لأن القلب أهمّ ما في الإنسان والمصير الأخروي الأبدي سيعتمد على حال القلب، فأهتمّ بكتب الصوفية لذلك. وعلى هذا النمط، لي سلسلة أولويات وإن كنت أقرأ في السلّم كلّه بقدر أو بآخر، وأهتمّ مثلاً بكتب الأدب شعراً وسجعاً ونثراً، عربية وأعجمية، من باب إدراكي لأهمّية الكلمة في وجودي الشخصي وتعاملي الإنساني مع الناس فضلاً عن تأثير الكلمة على العالَم. كتب الفلسفة والفكر والرأي والجدل مهمة أيضاً، والبحث المستمرّ فيها من أولوياتي، لأن الذهن له تأثير على نفسي وأخشى أن تغلب العاطفة عليّ فتضللني وكذلك أخشى من تأثير العادات والشائع حولي على فكري فأعمل على النظر في مختلف الأفكار المتضاربة حتى أتحرر منها جميعاً وأنظر فيها قدر الإمكان باستقلالية ولامبالاة فيكون تفكيري أدق وأقوى. وعلى هذا النمط، البداية دائماً من نفسي والنهاية دائماً في نفسي، وبحسب ما أعرفه من درجات وجودي أرتّب أولويات قراءتي. وأقتني الكتب الأهمّ فالأهمّ مع جمع شئ من كل شئ لمحدودية مواردي وليس لأني

أرى أنه يوجد كتاب لا فائدة منه مطلقاً، بل الحق أنه لا يوجد كتاب إلا وفيه فائدة وحقيقة وإن لم تكن هذه الفائدة في أسوأ الظنون إلا تعبيرها عن رأي ووجدان وغرض الإنسان الذي كتبها مما يعني أن ذلك الكتاب تجلّي من تجليات الإنسانية بالتالي يصير الكتاب شاهداً على معنى الإنسانية الكلّي فيصير مهماً لكل إنسان من هذا الوجه على الأقلّ وفي أسوأ الأحوال وأشدّ دركات التشاؤم في التعامل مع الكتب، وإن كان الواقع أن الكتب تشتمل على فوائد أكثر من ذلك لكننا ذكرنا الأسوأ حتى نبرر أصل وجود الكتاب وقيمة وجوده بالنسبة للناس جميعاً فإن كان هذا القدر منه يبرر وجوده والحفاظ عليه فما فوق ذلك من فوائد الكتب يجعله أولى بالعناية والرعاية بدرجة ما.

متى وأين أقرأ؟ أمّا أنا، فلا أقيّد نفسي بذلك. عندي كتب في مكتبتي، في غرفة جلوسي، بجانب سريري، في سيارتي، في مكتبي، بل في حمامي أيضاً (على سيرة كتب الحمام، سألني أحد أصحابي مرّة : كم تقرأ في اليوم؟ فأجبته: لا أعرف إلا أني أقرأ حتى في الحمام. فقال لي: كيف تضع كتباً في الحمام وهي بالعربية وقد يكون فيها اسم الله؟ فقلت له: أنا لا أقرأ في الحمام إلا الكتب الانجليزية !). من فوائد هذه القراءة غير المقيدة بمكان وزمان، هي اعتياد العقل على القراءة بحيث تصبح له مثل التنفس وشرب الماء. وهذه الراحة تؤدي إلى سهولة التفكير في

المضمون واستيعابه بعد ذلك. ومن فوائدها أيضاً استغلال الوقت لأنه كما قلنا العمر قصير والعلم كثير، فكلّما استطعت استغلال عمرك في اكتساب المعارف وإثارة فكرك كلّما كان الأمر أفضل. طبعاً، حين تقرأ في أماكن مختلفة وأوقات متعددة، فالأفضل أن تختار ما يناسب كل مكان بحسب طبيعته والمدّة التي ستقضيها فيه. فمثلاً، في المكان الذي ستجلس فيه لمدّة قليلة اختر الكتب ذات الكلمات القصيرة، مثلاً كتب الاقتباسات التي فيها تلخيص لأفكار مهمة عن مواضيع متعددة أو كتب المسرحيات والشعر (مرّة أخرى نرجع للحمام، لا أدري ما قصّة الحمام اليوم لكن لابأس. هذا النوع من الكتب القصيرة ينفع في مثل الحمام، لأنك ستجلس فترة قصيرة وتريد أخذ فكرة كاملة فتنفعك كتب الاقتباسات المركّزة. وقد قرأت أيضاً في الحمام بعض مسرحيات شكسبير وقوانين أفلاطون ومسرحيات سوفوكولس وما أشبه مما يناسب المحلّ والسرعة). مثلاً، من أحبّ الأعمال والأوقات لديّ هو أن أذهب إلى البحر، وأذهب إلى منطقة واسعة نسبياً بحيث أستطيع أن أتحرّك فيها براحتي بحركة دائرية، فأمشي وأتعرّض للشمس وأقرأ في وقت واحد جامعاً بذلك بين منافع كثيرة باطنية وظاهرية، فالكتاب الذي سأختاره لمثل هذا الوقت لن يكون مجلّداً ضخماً طبعاً بل سأختار شئ يناسبه بحيث يسهل حمله والنظر فيه واستيعاب مقاصده لأنه حين تكون الشمس في وجهك والعرق

يتصبب منك يمكن أن تفترض أن تركيزك لن يكون مثل تركيزك حين تجلس في مكتبك الخاص في سكينة وراحة ورائحة عطرة، فتختار ما يناسب ذلك وستعتمد على تجربتك طبعاً لا يوجد معيار واحد مفصّل للجميع في هذه الأمور وإنّما أذكر الأمثلة من تجربتي لعلّها تقرّب البعيد لمن لم يجرّب بعد. وعلى هذا النمط، تأمل باقي المواضع. وجملة القول، كلّما كانت راحتك أكثر كلّما كان الكتاب الأصعب أفضل، وكلّما كانت راحتك أقلّ كلّما كان الكتاب الأسهل أفضل. وأقصد بالراحة مجموع ثلاثة عوامل: ارتياح الجسم وتوفّر الوقت والتفرّغ للقراءة. توفّر الوقت ليس مثل التفرغ للقراءة، لأن المقصود بالتفرغ للقراءة أي أنت لا تفعل شيئاً سوى القراءة، فقد تقرأ لكون بدون تفرُّغ للقراءة نفسها كأن تقرأ وأنت بانتظار إتمام معاملة في مكان ما فأنت هنا غير متفرغ للقراءة فقط لأن ذهنك وانتباهك مشتت بما حولك أيضاً وأنت في هذا المحل لغرض غير نفس القراءة، كذلك مثلاً إذا كنت في غرفة مع أهلك وهم يشاهدون التلفزيون وأنت تقرأ فإنك غير متفرغ للقراءة بحكم كونك في اجتماع وضجيج ومراعاة من حولك وما إلى ذلك من مشاغل. التفرغ للقراءة يعني أنت لا تفعل ولا تراعي ولا غرض لك إلا نفس القراءة، كأن تجلس في غرفتك وتغلق الباب مثلاً وتقرأ. أمّا توفر الوقت فالمقصود به الفترة الزمنية التي تستطيع القراءة فيها، فمن الواضح أنك إذا أردت أن تقرأ فصلاً

من رواية الحرب والسلام لتولستوي وأنت جالس في الحمام ستُصاب بالبواسير بعد بضعة أيام ! (انتهيت، هذه آخر مرّة أذكر فيها الحمام في هذه المقالة التي انحدر مستواها فجأة بغير سابق إنذار).

يمكن في الجملة أن نذكر على سبيل المثال ثمانية من أنواع القراءة : الاطلاع، التحليل، التذوق، النقد، الترتيب، الاستلهام، التنظير، التقوية.

أمّا الاطلاع، فهذه القراءة السريعة التي تعتمد أكثر على عمل العقل الباطن، ولا تحتاج إلى تركيز شديد بل المرور على الكلمات لأخذ صورة وانطباع عام عن الموضوع وما يعلق بالذهن ويؤثر في اللاشعور هو الغرض الأساسي منها.

أمّا التحليل، فالمقصود منها تفكيك الكلام وعنونة الفقرات والأفكار، وإرجاع المواضيع إلى جذورها وفرز النتائج عن مقدماتها ثم النظر في الروابط بينها. وهي قراءة بطيئة جدّاً وكلّما كانت أبطأ كلّما كانت أفضل بشكل عام. فبينما في قراءة الاطلاع قد تقرأ كتاباً كاملاً في ساعة، في قراءة التحليل قد تبقى يوماً كاملاً في سطر. والتحليل عمل عقلي واعي ودقيق ويجمع بين التفكيك والتذكر والرجوع إلى المراجع والتدقيق في القضايا المعروفة. وهو أساس القراءة العلمية البرهانية والدراسات التي يُراد عرضها على

أذهان الناس عموماً بغض النظر عن رأيهم الشخصي في القارئ والكاتب.

أمّا التذوق، فالحواس القلبية التي تجد لذّة في الكلام اللطيف والجميل والخفيف على الروح والصادق النية والمبارك الأنفاس، مثل كلام العرفاء والشعراء الظرفاء، هذه الحواس تشتهي لذّة الكلام كما تشتهي حواس البدن لذّة الطعام والجماع والعطور مثلاً. فقد تقرأ للتذوق وإن لم تفهم ما تقرأه على مستوى الذهن التحليل والإدراك المفصّل، لأن غرضك هنا هو طرب القلب أكثر من زيادة أفكارك وتوسعة معارفك.

أمّا النقد، فبدايته تحليل كما شرحناه في القراءة التحليلية، لكن التحليل يتوقف عند فهم الموضوع بدقّة وهندسة، لكن النقد يزيد عليه بخطوة وذلك بغربلة الموضوع والطعن في الأدلّة والروابط أو تفسير النتائج بنحو مخالف، وبشكل عام هو إظهار نقاط الضعف في الكتاب، وتمييز الضعيف عن القوي، مع الاعتراف بقوّة القوي أثناء ذلك. كما أن الناقد يبينّ الفرق بين العملة المزورة والعملة الصحيحة، ويبينّ درجة جودة الذهب ودرجاته المختلفة. كذلك الحال في القراءة النقدية، فإنّها تميّز الصواب من الخطأ، والقوي من الضعيف، مع تبيين درجات كل واحد منهم في القوة والضعف. فإن كانت القراءة التحليلية من الجهاد، فالقراءة النقدية من الجهاد الكبير.

أمّا الترتيب، فأن تعيد ترتيب الموضوع المقروء بنحو مغاير وأفضل من زوايا معيّنة لحالته الأصلية. فالكاتب قد يكتب بطريقة عشوائية أو تتداخل فيها المطالب والمعاني أو يكتب بطريقة منطقية لكن بنوع معين من الترتيب المنطقي دون سواه، فتأتي أنت وتقرأ التفاصيل والفقرات وتسلسل الأفكار حتى تعيد ترتيبها بنحو جديد قد يكون أفضل من حيث تسلسله المنطقي مثلاً من المقدمات إلى النتائج مع فرز كل موضوع عن غيره وإخراج ما ليس منه مما ورد خلال النصّ منه. أو قد ترتّبه ترتيباً جديداً بحيث تصل بنفس المعاني الواردة في النصّ إلى نتيجة مخالفة للتي توصّل إليها الكاتب نفسه. وبما أن الفكرة دائرة في صورتها، فيمكن إعادة ترتيب أي سلسلة من الأفكار بنحو لانهائي كما أن نقاط الدائرة لانهاية لها واتصالها بغيرها من النقاط ممكن بنحو لانهائي. كذلك ترتيب أي سلسلة من الأفكار قابل للتغيّر والتعديل لإبراز حيثيات وجهات مخصوصة. وأنا شخصياً أقرأ قراءة ترتيبية قبل ممارسة التحليل أو النقد أو غير ذلك من أنواع القراءة التي تحتاج إلى فهم خاص أو اعتقاد خاص فأرتّبها بحيث تنكشف لي بنحو يلائم عقلي أو يلائم الغرض الكشفي الذي أريده والذي يبرز أكثر بعد إعادة ترتيبه.

أمّا الاستلهام، فمثلاً قد أجلس بنية الكتابة بدون أن يوجد لدي موضوع خاص أريد الكتابة فيه، فأضع أمامي كتاباً وأقرأ فيه

وأنا مستعد للكتابة فأقرأ فيه إلى أن أجد ما يثير فيّ فكرة أو يبعث في خاطراً أو يصلح ليكون منطلقاً للكلام فأعتبره طرفاً لخيط التفكير فآخذه وأنطلق منه وأضع الكتاب جانباً. وكذلك الحال في التكلّم، فقد أجلس للتكلّم في موضوع ما ، فآخذ كتاباً في هذا الموضوع وأقرأ منه وأنطلق في الحديث من نقطة من النقاط التي يثيرها حتى أصل إلى ما شاء الله. فهنا غرضي هو الاستلهام من الكتاب وإثارة الخاطر، وليس بالضرورة التعاطي التفصيلي مع الكتاب ذاته، فعقلي مثل الكبريت الذي أريد تحريكه على شئ ما من أجل أن تشتعل فيه نار الفكرة أو الوجدان، فأتّخذ كتاباً ما لهذا الغرض. نعم، سيختلف نوع الكتاب بحسب نوع الفكرة التي أريدها والعالَم والشعور الذي أريد الدخول فيه، فإن أردت جوّاً فلسفياً سأختار كتاباً يختلف عن الكتاب الذي سأختاره إن أردت جوّاً عاطفياً، وهلمّ جرّاً. للكتب طبائع غالبة عليها، كما أن الأطعمة لها طبائع غالبة عليها، والقراءة الجيّدة تنبع من ملاحظة نفسك ومعرفة ما تحتاجه في كل لحظة مع معرفة الكتب النافعة لك في هذه اللحظة. الذي لا يقرأ إلا في صنف ونوع ولون واحد من الكتب فإن عقله يفسد كالذي لا يأكل إلا صنفاً ونوعاً ولوناً واحداً من الطعام دائماً. وليس من لاشئ أنزل الله "كتباً" وليس كتاباً واحداً على الإنسانية، وليس من لاشئ تجد في القرءان مختلف أنواع السور من الطويل إلى القصير، من المركّز إلى

المفصّل، من ذي القافية إلى غيرها، من القصص إلى الأحكام إلى الإلهيات إلى الطبيعيات، وهكذا. العقل مثل الجسم يحتاج إلى حمية كلمات مختلفة، يحتاج إلى شعر وسجع ونثر، إلى فكر وعاطفة وسخرية أيضاً، ومن كل صنف ونوع ولون موجود، كل ذلك يحتاجه باطن الإنسان. وبمعرفة هذه الطبائع التي للكتب وأرواح الذين كتبوها الظاهرة أنفاسهم في كتابتهم لمن لديه حاسّة الشمّ القلبية، وبدوام مراقبة نفسك وتمييز حاجتك من غيرها مع توكّل دائم لحصول التوفيق والتسديد من العليم الحكيم الذي يربّك ويربّيك ليوصلك لكمالك وما يناسبك، يمكن اختيار الكتاب المناسب للاستلهام منه في أي لحظة بحسب الحال.

أمّا التنظير، فقد تطلب إقامة نظرية كاملة الأركان في موضوع معينّ، وحينها ستبدأ بجمع الكتب المتعلّقة بهذا الموضوع ثم تقرأها قراءة مَن يعرف أقسام الموضوع الذي يتحدّث فيه وينظر في كل كتاب بحيث يستخرج منه الجزء المناسب لكل جزء من النظرية، ويجمع هذه الأجزاء بنحو معقول مرتّب مقسّم متّصل الأقسام. ولعلّ القراءة التنظيرية هي أعلى القراءات النافعة للعلماء، ومن المؤسف أن يموت الإنسان بدون أن يضيف إلى رصيد الإنسانية على الأقلّ نظرية واحدة جديدة يجتهد فيها ويشتغل عليها ضمن قراءاته وأشغاله. فلو اجتهدت في مسألة واحدة في علم واحد في حياتك كلّها بحيث تضع نظرية قويّة ومفصّلة

ومتماسكة قدر الإمكان، فتكون قد أفلحت في العيش كإنسان أقصد كمتعلّم ومفيض للعلم.

أمّا التقوية، فأقصد بها تقوية عقلك وصبرك على القراءة عموماً والبحث والدرس والانتباه خصوصاً. أحياناً قد أقرأ فقد لتقوية عقلي واختبار صبري ومدّه وبسطه، فأختار كتاباً صعباً طويلاً معقداً وإن كنت لا أفهم فكرة واحدة منه وأشعر كأني أقرأ بلغة لا أفهمها، فمع ذلك أصابر نفسي وأغالب النعاس وأجبر ذهني على الانتباه للمقروء. من تجاربي مع هذه القراءة المكروهة لمعظم الناس، استفدت أموراً كثيرة جداً. منها الصبر والجلد على الدرس، فإن كنت أصبر على ما لا أفهمه ولا أتشوق إليه فسأكون مرتاحاً جدّاً في ما أفهمه وأتشوق إليه وهو المطلوب ولذلك تصير الدراسة عندك حينها مثل التنفّس والتفكير والقراءة عموماً مثل شرب الماء من السهولة والانسيابية والعفوية. فائدة أخرى جليلة وهي أني بعد فترة أجد الكتاب الصعب الذي صابرت نفسي عليه ينفتح علي ويصبح سهلاً ومفهوماً، وبذلك أكون تغلّبت على عقبة جديدة في مسيرتي المعرفية. من أبرز الكتب في هذا الباب كانت كتب الفيزياء والعلوم الحديثة المادية الكمّية، وكذلك كتب العرفان النظري ككتب محيي الدين ابن عربي. فبالرغم من الصعوبة المطلقة في البداية بحيث أني لعلي كنت أفضّل قلع شعر رأسي على الاستمرار فيها، إلا أنها ازدادت سهولتها مع الوقت أو حصل

لي فيها فتح يسّرها لي وإن كان ذلك بعد سنوات من المجالدة والمصابرة والمرابطة عندها ، وكذلك الشعر العربي أيضاً الذي كنت أكرهه من شدّة تعقيده وصعوبته وإذا بي بعد فترة ولأحداث معيّنة صرت أكتب القصائد وأضعها حتى في سيارتي وأتغنّى (أعيذك بالله من أن تسمع صوتي!) وأتأمل فيها بشكل شبه يومي. المصابرة على قراءة المكروه شرط لتسهيل قراءة شتّى أنواع الكتب. الفائدة الثالثة وما أعظمها ، هي أني أحياناً كنت أصبر على قراءة أربعمائة صفحة من الكلام البارد السخيف وإذا بي في حاشية صغيرة وسط الكتاب الأكاديمي الممل أجد عبارة أو أبياتاً أو تعريفاً أو مرجعاً فينزل عليّ كالصاعقة التي تغيّر مجرى حياتي الوجدانية والعقلية بالكلّية حتى أني قبلها لا أكون مثلي بعدها. وحصل هذا الأمر معي أكثر من مرّة. ولذلك صرت أجد باعثاً جديداً لتصبير نفسي على القراءة الصعبة العقدة لأني أرجو أن أجد في ثناياها ما يبرر لي تعبي ويعوضني عن وقتي وجهدي. وفوائد أخرى كثيرة مثل أن تسعى في أن لا تكون كتابتك صعبة بلا داع إلى حد تختبر بها صبر الآخرين (أو تعرّضك لدعواتهم المستجابة) ، أو أن تتعلّم الكتابة الباردة الطويلة في الحالات الضرورية التي تحتاج إلى هذا الصنف لأن الموضوع والجمهور الخاص به لا يصلح له إلا هذا ، أو فوائد كثيرة لا داع للسعي في تعدادها وحصرها. قراءة التقوية رياضة العقل، والعقل يريد فكرة تغذّيه وشهوة تطربه

وشعور يحيه وبرود يسكّنه وعضلات تجمّله ، كل ذلك خير، وأنواع القراءة تخدم كل هذه الأغراض.

...–...

٧–الدعاء.

لأن الإنسان محدود في العالَم وبالعالَم، ولأن رب العالَم لا يفرض على الإنسان إلا ما يريده الإنسان فلا يتدخل في حياته إلا بإرادته، شُرِعَ الدعاء. لأن الدعاء دعوة ربّك للتدخّل في شؤونك التي سبق وأن أعطاك حرية التصرّف فيها. نعم توجد أمور لم يُعطَ الإنسان حرية التصرّف فيها من الأصل وذلك بحكم عبوديته الأصلية، ففي هذا النوع يوجد فرض وتدخّل إلهي بغض النظر عن إرادة المخلوق. لكن الإنسان يجمع بين العبودية والحرية، بين القيود والإطلاق، بين القهر والإرادة. الدعاء مشروع للإنسان الذي يريد ربّه أن يكون معه حتى في الجانب الذي هو حر ومطلق ومريد متصرّف فيه. فالدعاء إعادة الحرية التي أعطيتها لربّها، لكن بإرادتك، فهو العبادة الاختيارية، عكس العبادة الاضطرارية المتعلّقة بالجوانب المفروضة على الإنسان بغض اختيار منه من الأساس. النظر في وجودنا يكشف بالضرورة عن وجود العبودية والحرية، القيود والإطلاق، القهر والإرادة، الإجبار والاختيار. لا يمكن الهرب من هذه الحقيقة، ولا يمكن إلغاء أي طرف من هذين الطرفين من واقع الإنسان، كأن يحاول شخص إثبات أن لا اختيار

البتْة للإنسان من أي وجه كان كما تفعل مذاهب الجبرية الكلامية الدينية و العلمية الطبيعية، وكذلك مثلاً المحاولة الأخرى لإنكار أي قيد على الإنسان واعتباره حرّاً مطلقاً وأن كل ما يحدث له فهو باختياره وبإرادته أو بعمل سابق منه كما تفعله مذاهب أخرى كلامية دينية وفلسفية. محاولة الهروب من الثنائية والازدواجية التي تجمع بين الأضداد في ذات الإنسان ووجوده وشؤونه هي محاولة فاشلة من البداية وتدلّ على عقل ضعيف لا يريد إدراك الأمور كما هي بل يريد اختزالها وتبسيطها لوحدة سهلة وإن كان الواقع العملي والمنظور لكل إنسان يكفي لنقض أي محاولة اختزالية من هذا النوع. من هنا تفهم أيضاً نزعة أخرى تجدها عند الناس عموماً، وهي وجود مَن ينكر حقيقة أو فائدة الدعاء من جهة، أو ينكر أي قيمة لاختيار الإنسان باستقلال عن الدعاء من جهة أخرى. هذا التطرّف والاختزال أيضاً ناشئ من إرادة تبسيط الموضوع إلى وحدة سهلة الإدراك لأن الجمع بين الأضداد صعب على مَن اعتاد السخافة في النظر لنفسه والوجود عموماً. الحلّ الأمثل لكل تلك المحاولات الاختزالية هو في كلمة واحدة: الدعاء. لأن الدعاء يكشف عن جانب الحرية والاختيار من حيث أنك حر في إنشاء الدعاء أصلاً وفي تحديد صيغته وإرادتك منه وكذلك في توجيهه إلى أي جهة تشاء حتى لو كانت وهمية "كباسط كفّيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال"،

إلا أنه من جهة أخرى يكشف عن جانب العبودية الأصيل الذي فيه وهو تقيّدك بقيود قهرية طبيعية وكونية ووجودية وإرادتك ضمان حسن نتائج عملك أو تحصيل قوى تريدها لتكميل نفسك لكنّها ليست في يدك. أنت لم تختر وجودك ولا كينونتك ولا حدودك ولا العالَم الذي ستنزل فيه ولا الوقت الذي ستنزل فيه ولا تقريباً كل القوانين الطبيعية التي تحيط بك وتفرض عليك السير بها ومن خلال قنواتها للوصول إلى ما تريده وهكذا انظر في نفسك وحولك وستجد معنى أصالة عبودية الإنسان. لكن هذه العبودية لا تستهلك كل حقيقتك وقواك، بدليل أنك تملك اختيارات كثيرة وإرادة تحرّك بها فكرك وخيالك وبدنك وتتصرّف بها في الأشياء حتى أن الإنسان قادر على تدمير الطبيعة المعروفة كلّها اليوم بضغطة زرّ وإن كان تدميرها سيتمّ أيضاً عبر قنوات ومواد طبيعية يجب عليه السير من خلالها ! فكما ترى هو عبد في نفس الوقت الذي هو حرّ فيه، فحريته مقيّدة، لأنه يستطيع تخيّل عدم حاجته إلى التوسّل بالأسباب الكونية لبلوغ ما يريده، كأن تكون نفس إرادته كافية في تكوين الشئ المُراد على طريقة "كن فيكون"، أو يتخيّل أسباباً غير الأسباب الموجودة مثلاً، فهذا أمر ممكن في خياله، إلا أنه غير ممكن في واقع حاله. فعقل الإنسان ومخيلته أكثر تحرراً من طبيعته. طبيعتنا تقهرنا، مخيّلتنا تحررنا. ومن هنا ميل الإنسان الواعي إلى جانبه الباطني وعمله العقلي والخيالي

وانزوائه في وجدانه، فإن عالَمه الداخلي أكثر تحرراً وانصياعاً لإرادته من عالَمه الخارجي الطبيعي. فمثلاً، هجوم الأفكار ليس مثل هجوم الأشرار، الأفكار مهما كانت قوية وطاغية إلا أنك قادر بوجه أو بآخر على التحكم بها أو التصرّف فيها أو الاستفادة منها أو عدم التأثر بها بنحو سلبي أيا كانت في نهاية التحليل القوّة لك فحتى حين تخضع لها أنت خاضع بإرادتك طوعاً إن دققت وتأملت، أمّا هجوم الأشرار في الطبيعية كالحوادث والبراكين والزلازل أو الوحوش أو البشر وغيرهم فإنه يأتي بنحو قهري غالباً لا تستطيع تغييره بمجرّد إرادتك وهمّتك في العادة. فباطن الإنسان أكثر حرية من ظاهره. كذلك مرض قلبك ونجاسة نفسك ليست مثل مرض جسمك، فيوجد اختيار وسعة أكثر في علاج أمراض القلب (أقصد القلب الغيبي وليس القلب اللحمي الذي في الصدر العظمي) منه في علاج أمراض الجسم، فقد يكون أطهر الناس قلباً وأقدرهم على شفاء أدنى ذرة مريضة في القلب، يكون أكثر الناس تعرّضاً للأمراض القاهرة في بدنه ولا يستطيع تغييرها ولا يعرف أصلاً ما هي ولا طريقة التحرر منها والتأثير في وجودها. كل ما سبق يدلّ على اجتماع العبودية والحرية في وجود الإنسان. وفي عوالم الإنسان باطنه أكثر تحرراً من ظاهره. وهنا يأتي الدعاء.

فالدعاء قد يكون مجرّد تعبير عن العبودية الأصلية، وهو دعاء المقرّبين الذين لا يسألون ربهم من أجل تغيير شئ ما لأنهم يرون أن كل ما يحدث لهم هو أفضل ما يمكن أن يحدث لهم بسبب العناية السابقة لله بهم وبحكم إيمانهم "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون" ، إلا أن هؤلاء يسألون ربّهم من أجل إظهار عبوديتهم الأصلية وافتقارهم الذاتي إليه، فحتى لو سألوه في أي شئ فإن نيّتهم الأصلية في الدعاء هي إظهار العبودية وحتى حين يسألون في موضوع خاص فإن هذا الموضوع ينظرون إليه كتجلٍّ من تجليات الأسماء الإلهية ويأخذونه ناظرين إلى اليد التي تعطيه لا إلى صورة العطاء باستقلال عن اليد التي أعطته ويجدون قيمة صورة العطاء لأن يدّ ربّهم قد أمدّتهم به كما قال الله لإبليس حين احتقر آدم "ما منعك أن تسجد لما خلقتُ بيَدَيّ" فكون يداه تعالى قد اتّصلت بآدم فهذه درجة عظيمة وقيمة كبرى لمن يعقل عن الله ويريد وجهه. كذلك في كل عطاء يأتي بعد دعاء عند مَن يدعو من أجل إظهار العبودية الأصلية.

ثم يوجد دعاء الجاهلين (وكل إنسان جاهل قطعاً بشئ ما وإلا لم يطلب الازدياد من العلم ولكان علمه مطلقاً مثل الله وهذا مستحيل فالجهل هنا ليس شتيمة بل وصفاً لواقع لا مفرّ منه)، وهم الذين يدعون من أجل أنهم لا يحسنون التصرّف في المجالات

التي لهم فيها حرية الاختيار، فيخافون من التحرّك في العالَم بحكم جهلهم بأسبابه وآثارها، فيسألون ربّهم أن يبينّ لهم أفضل الطرق للسير وأحسن الاختيارات للعمل بها، ومن هذا القبيل دعاء الاستخارة.

ثم يوجد دعاء الراغبين، وهم الذين يريدون تحقق شيئاً ما لهم، ولأنهم لا يملكون سبباً لتحصيله فيسألون ربّهم أن يحققه لهم، فإن استجاب حققه لهم بواسطة مخلوق ما يسخّره لذلك أو بواسطة تسخير مخلوق مع بعثهم هم للقيام بعمل ما يشرح له صدورهم أو يحرّكهم إليه حركة قهرية لا يدركونها أو لا يريدونها بوعي لكن تكون في المحصّلة رغبتهم قد تحققت، أو بواسطتهم هم فقط بأن يلهمهم القيام بأمر ما ويكشف لهم عن السبب الطبيعي الموضوع لتحقيق ذلك كالعطشان الذي يلهمه محلّ وجود الماء فيذهب إليه ويشربه. والرغبة هنا تشمل إرادة الشئ أو عدم إرادة الشئ المعروفة عادة باسم الرهبة، فقد ترغب في تحقق شئ أو ترغب في عدم تحقق شئ إلا أنك لا تملك سبباً للخلاص منه فتدعو ربّك فيفعل ما يشاء. ومدار دعاء الرغبة على العجز، لأنك قد تعلم بالسبب الكافي لكنك لا تملكه، وقد تملك السبب لكنك تعجز عن استعماله بسبب وجود عوائق أو خوف في نفسك أو غير ذلك من العوائق النفسية والطبيعية. فالعجز سبب من أكبر أسباب الدعاء.

فكما ترى، الدعاء يدور حول محدودية الإنسان، مع عدم رضا الإنسان عن هذه المحدودية في كثير من الأحيان لكونه يتخيّل كمالاً أعلى مما هو فيه الآن فيدعو ليتحقق ذلك الحال الأكمل. والدعاء أيضاً ينشأ من إدراك أن الفعل في العالَم في الحقيقة النهائية يرجع إلى فعل الله تعالى، ولا فاعل إلا هو ولا فاعلية إلا له، فحتى إن كان وجد الكائن في ذاته قدرة على الفعل فإنه يدرك أن هذه القدرة نفسها هي تجلّي من تجليات القدرة الإلهية فلا يرى لنفسه إلا الفقر الخالص فيدعو الله قبل أي عمل (مثل "بسم الله" التي يقولها المؤمنون وهي الدعاء الأعظم) لأنه يريد بركة الله من جهة وتذكير نفسه من جهة أخرى واحترام وتوقير المقام الإلهي من جهة ثالثة بحيث لا يتصرّف في ملكه وملكوته إلا بإذنه الحي الحاضر فيكون لسان حاله في هذا الدعاء هو : ربّ أعطيتني قدرة التصرّف لكن لا أجرؤ على التصرّف في ملكك بغير إذنك ورضاك فإن كنت ترضى عن عملي هذا فاجعلني أعمله وإن كنت لا ترضى عنه فكُن حائلاً بيني وبينه وامنعني من القيام به. وهذا أعلى مقام في الدعاء لأنه يجمع بين العبودية والحرية، ويجمع القول مع الفعل، ويؤسس النيّة على التوكّل الحي الصريح.

بناء على ما سبق، نفهم لماذا الدعاء من أصول الطريقة الثمانية. وعليه، يمكن للإنسان أن يبدأ بأن يجعل "بسم الله الرحمن الرحيم" في فواتح جميع أعماله، ويستشعر ما مضى

ويستحضره. ثم كلّما وجد نقصاً في حياته، ظاهراً أو باطناً، يدع الله فيه في سرّه ويسأله منه. ثم تكون للسالك أدعية معيّنة كالأوراد يواظب عليها في أوقات محددة من الليل والنهار، كالأوراد الجامعة لأهل الله كحزب الدور الأعلى لمحيي الدين ابن عربي و حزب البحر للشاذلي مثلاً أو صلاة ابن مشيش عند المسلمين. فبين البسملة والمسألة والأوراد الجامعة تصبح حياة الإنسان مليئة بالدعاء فليكن الدعاء ليس مجرّد صورة بل نابع من قلوب عاقلة مستيقظة صادقة.

...–...

٨-المجالس.

المجلس هو اجتماع سالكي الطريقة للكلام عن الحقيقة.

السالك مَن يقوم بواحد من الأعمال السبعة التي ذكرناها (الخلوة، التأمل، الذكر، الفكر، الكتابة، القراءة، الدعاء) لأنه سينتج عن العمل بها نور ما فيه، ولأن من طبيعة النور الإشعاع كما أن من طبيعة الماء أن يفيض تجاه الأدنى حتى يستقرّ ومن طبيعة الشمس أن تشعّ ضياءها، كذلك من طبيعة العقل أن يحبّ الكلام وإيصال ما عنده لمن له قابلية وتقبّل له. وكل إنسان قادر على الكلام سيتكلّم ويعبّر ولو بالإشارة، فالإنسان يريد التعبير عن ما في نفسه ومكنون ضميره وغيب فكره ويميل إلى تجليته وتنزيله في صورة يتواصل بها مع الآخرين ممن يرى فيهم قابلية أو

تقبّل له. ومن هنا تجد أن الإنسان إذا بقي وحده فترة طويلة نسبياً سيتكلّم ولو مع نفسه، ولو مع الحيوانات حوله، بل ولو مع الجمادات ويخاطب الأحجار والأشجار أيضاً، فضلاً عن الكلام مع ربّه ومع مَن يؤمن بأنهم يسمعونه من سكّان السموات وعوالم الغيب، كل ذلك مشهود في شرق الأرض وغربها قديمها وحديثها. الإنسان ناطق، ولو سينطق أمام جامد. فهذا يكشف عن الطبيعة المشعّة والحقيقة الفيّاضة للروح العقلي.

إلا أن ما سيتكلّم به الإنسان سيختلف بحسب اختلاف مقامه ودرجته والمنابع التي يستقي منها والعيون التي يشرب بها. ومن هنا نجد فرقاً مثلاً في القرءان بين مجلس العلم ومجلس اللغو، فمجلس العلم مثل مجلس النبي "إذا قيل لكم تفسّحوا في المجالس فافسحوا" وهو مجلس ذكر وفكر وتدارس قرءآن ودعاء بشكل رئيس. ومجلس اللغو هو الذي قيل فيه "وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً" وجاء النهي عن مجالسة مَن يخوض في آيات الله بالنسبة لبعض الناس. وهذا أمر يعلمه كل إنسان. لأنك ستجد فرقاً بين أناس تحبّ مجالستهم وأناس لا تحبّ مجالستهم، فلديك معيار ما تقيس به وإن كنت غير واعي تمام الوعي بهذا المعيار إلا أنه موجود حتماً ولو تأملت ودققت وحللت ونظرت في نوعية المجالس التي تحبّها وتكرهها ستكتشفه بإذن الله. فما هو المعيار عند أهل الطريقة؟ هي الطريقة ذاتها. بمعنى تختار من الناس

الصديق الذي ترى فيه نوراً ولديه قابلية للنور الناتج عن واحد من الأعمال السبعة. وسيظهر ذلك في كلامه وفي أخلاقه وفي بدنه. فمدار كلامه المعرفة، ومدار أخلاقه المسالمة، وصورة بدنه النظافة. ثم الناس درجات في هذه الأمور، وواحدة من أغراض المجلس هي السعي المشترك للارتقاء بالعقل والخلق والأدب بالاستفادة من مقال وأحوال أهل الطريقة.

مكان المجلس: مدار اختيار مكان المجلس على سهولة الوصول إليه، نظافته وفسحته بحسب عدد المشاركين، الأمان، القدرة على التصرّف فيه من حيث امتلاككم له. ولعلّه من الأفضل لو تمّ تعيين مكان واحد يحصل فيه الاجتماع حتى لا تتشتت الأذهان ولا يحتاج الأعضاء إلى التواصل باستمرار والمناظرة في تحديد موقع كل اجتماع، إلا أن يتم تحديد ذلك مسبقاً كأن يقال السبت هنا والخمس هناك.

زمان المجلس: مدار اختيار أوقات إقامة المجالس على فضيلة الأيّام كليلة الجمعة مثلاً، وَ تفرّغ المشاركين من مشاغل الدنيا، ونشاطهم ويقظتهم فلا يكون بعد يوم مرهق بحيث يأتي الناس مشوشة أذهانهم مثلاً. ومن الأفضل تحديد أوقات المجلس يوماً وساعة (من-إلى أو من-مع فتح نهاية المجلس)، وأقول هذا بالتجربة، ويحصل الالتزام بالوقت ما لم تأت مصيبة قاهرة ويتم تأجيل أي غرض لما بعد المجلس ولا يتعذّر أحد بعذر بدنيا غير

قاهر (والقاهر ما إن لم تشتغل به ستأتي المجلس وقلبك مضطر إلى عدم التيقظ والالتفات لما يدور فيه) ومما جرّبته أن القبول بأي عذر لعدم حضور المجلس يمحق بركته ويحلّ عراه ويفصمه ويفصل ما بين أهله. المجلس هو الساعة التي تبرر الأسبوع كلّه من حيث أشغال الدنيا، وهي الساعة التي تشبه الاجتماع في الجنّة الأخروية لكن في صورة طبيعية، وهو وقت تنزّل الرحمات وحلول السكينة وذكر الله لأهله والمغفرة وتداول كنوز المعرفة وثمار الفكرة والأحوال وتقوية الجماعة. فلا يوجد أهمّ من مجلس أهل الطريقة، وحتى الصلاة المفروضة تؤخّر لما بعد المجلس إن اضطرّ الأمر لأن في وقتها سعة ولا شئ أفضل من الذكر والعلم، فما بالك بما دون ذلك من أشغال الدنيا.

كيفية إدارة المجلس: مدار الأمر على إمكان تحدّث الجميع بما عندهم بدون مقاطعات ولا مهاترات ولا صراخ ولا خلافات. فأن يقول كل واحد ما عنده في الموضوع المطروح أو يفتتح هو موضوعاً إن لم يكن ثمّة موضوع مفتوح، ثم يدخل البقيّة معه في ما فُتِحَ لهم، فإن الله هو الذي يدبّر مجالس الطريقة لمن عقل ونظر. ولذلك ينبغي أن تكون القلوب متفتحة على ذلك ومستحضرة لحضور الله. إلا أن إحدى الطرق التي جرّبناها وكانت رائعة هي الجمع بين تحديد الموضوع وإطلاقه، بين الإدارة المحددة والمنفتحة. كيف؟ كنت أختار كتاباً معيّنا اتّفق فيه مع الأصدقاء وأقرأ منه ونتكلّم عليه

بما يناسب الحال، ويقتصر تدخّل الإخوة بحسب الموضوع المطروح فقط. ثم بعد الفراغ من الحصّة المناسبة لذلك اليوم، ينفتح النقاش بلا قيد. بذلك جمعنا بين القراءة في كتاب مخصوص أي موضوع محدد والتدرج في شرحه والنظر في سلسلة متّصلة من الأفكار، وبين فتح الموضوع بلا قيد بحسب الخاطر. وكذلك جمعنا بين إدارة واحد للمجلس وبين إدارة الكل له. بين أن يتكلّم الواحد ويسمع. بين يسأل ويطرح. وجدت هذه أحسن الطرق إلى الآن، بحسب النظرية وبحسب التجربة، ولم أجد أو أشارك في مجلس أحسن من هذا. بل كان الاقتصار على نوع معين بدل الجمع بين الأنواع يقلب المجلس إلى ملل أو برود أو شبه فرعنة أو ما أشبه مما يُذهب بريقه ويمحق بركته ويقطع شجرته ويقلل منافعه. فتأمل وجرّبوا، ومدار اختيار كيفية إدارة المجلس على الاتفاق والحوار المفتوح بين الأصحاب وإجماعهم على كيفية معيّنة تناسبهم ويقبلونها طوعاً وبرضا القلوب صدقاً. ويتمّ الجمع بين الآراء المطروحة ما أمكن، فإن المجلس محلّ وفاق ووحدة، لا محل تنازع وفرقة، إذ ما ينبغي عند نبي تنازع".

...—...

الخلاصة : هذه هي أعمال الطريقة الثمانية باختصار. فمن جمعها كلّها فهو الأكمل من حيث جمعه وإن لم يكن لكمالات هذه الأعمال حدّ تنتهي إليه لأنّها كلّها متعلّقة بالنور والنور لا حدّ له.

فالطريقة استنارة قد تكون لها بداية لكن لا نهاية لها لا استفادة ولا إفادة. فانظر لنفسك واختر طريقك وارجع لربّك.

....